



# جاذبية الاكتفاء الذاتي الفطرية: لماذا يعود هذا الدافع باستمرار في الخطاب العالمي؟

بقلم: علي نوريان / باحث متخصص بالشؤون الدولية / إيران



تأسس مركز حمورابي للبحوث والدراسات الإستراتيجية عام 2008 بمدينة بابل (الحلة)، وحصل على شهادة التسجيل من دائرة المنظمات غير الحكومية المرقمة 1Z71874 بتاريخ 2012/12/25، بوصفه مركزاً علمياً بحثياً يهتم بدراسة الموضوعات السياسية والاجتماعية، فضلاً عن الاهتمام بالقضايا والظواهر الراهنة والمحتملة في الشأن المحلي والإقليمي والدولي، ويتعامل مع باحثين من مختلف التخصصات داخل العراق وخارجه، وتحتضن بغداد المقر الرئيسي للمركز.

- لا يجوز إعادة نشر أي من هذه الأوراق البحثية إلا بموافقة المركز، وبالإمكان الاقتباس بشرط ذكر المصدر كاملاً.
- لا تعبر الآراء الواردة في الورقة البحثية عن الاتجاهات التي يتبناها المركز وإنما تعبر عن رأي كاتبها.
- حقوق الطبع والنشر محفوظة لمركز حمورابي للبحوث والدراسات الاستراتيجية.

## للتواصل

**مركز حمورابي**  
للبحوث والدراسات الاستراتيجية

العراق - بغداد - الكرادة

+964 7810234002

hcsiraq@yahoo.com

www.hcsiraq.net



يشهد العالم موجة عارمة من الرغبة في تحقيق المزيد من الاكتفاء الذاتي. فقد أعلن دونالد ترامب "الاستقلال الاقتصادي" للولايات المتحدة، ويبدو أنه يسعى لعزلها عن نظام التجارة العالمي الذي بنته بلاده بشق الأنفس منذ الحرب العالمية الثانية – وهو نظام حقق فوائد اقتصادية جمة لدول الكوكب بأسره.

وليس الرئيس الأمريكي وحده من يرغب في توجيه أمتة نحو الداخل والاعتماد بشكل أقل على الدول الأخرى فيما يتعلق بواردات السلع والمواد الخام. فقد دأب الرئيس الصيني شي جين بينغ لسنوات عديدة على الدعوة إلى "الاعتماد على الذات" (zili gengsheng). وسعيًا لتحقيق ذلك، تعمل بكين على تثبيط الواردات ومحاولة تعزيز الإنتاج المحلي الصيني لكل شيء من الغذاء إلى رقائق الكمبيوتر.

وقد سلك آخرون هذا المسار أيضاً. ففي العام الماضي، تفاخر فلاديمير بوتين قائلاً: "روسيا دولة مكتفية ذاتياً بكل معنى الكلمة"، مستخفاً بتأثير العقوبات التجارية الغربية ضد البلاد في عام 2022 وسعت إلى تحويلها إلى منبوذ اقتصادي. وقد اعتمد رئيس الوزراء الهندي ناريندرا مودي شعار "الهند المعتمدة على الذات" (atmanirbhar bharat) لأكبر دولة في العالم من حيث عدد السكان حالياً. حتى الاتحاد الأوروبي، الذي لطالما كان متجهاً نحو الخارج، بدأ يستكشف كيف يمكن للتكتل تحقيق استقلالية اقتصادية أكبر في مجالات تتراوح من الطاقة إلى الدفاع.

إن هذا التمجيد للاكتفاء الذاتي والتراجع عن قيمة الروابط التجارية يمثل قطيعة عميقة مع عقيدة العولمة فكرة أن الترابط المتزايد بين الأمم من خلال التجارة سيعزز أمن وازدهار الجميع. ومع ذلك، على الرغم من أن هذا التحول قد يبدو حديثاً للغاية، فإن هذه الرغبة في التوجه نحو الداخل، وتخلص الأمم من قيود الترابط والاعتماد، ليست جديدة؛ بل هي قديمة قدم التاريخ.

على مر القرون، كان هذا الدافع محسوساً بعمق على المستوى الفردي بقدر ما كان محسوساً على المستوى المجتمعي. وفي الواقع، قد يكون فهم كيفية تفاعل هذين المستويين وتعزيزهما لبعضهما البعض أمراً بالغ الأهمية لفهم الجاذبية الدائمة لهذا النمط من التفكير – ولتكوين فكرة عن المسار الذي يمكن أن يقودنا إليه، سواء كأفراد، أو كدول قومية، أو كمجتمع عالمي.

### من برميل ديوجين إلى مدينة أرسطو الفاضلة

عاش الفيلسوف الكلي ديوجين، من القرن الرابع قبل الميلاد، في برميل بسوق كورنث، ويُقال إنه كان ينبج على الناس مثل الكلب ليُظهر ازدراءه للأعراف الاجتماعية. عندما زاره الإسكندر الأكبر، سأل فاتح العالم

الزاهد الرث، الذي كان يستمتع بقلولته آنذاك، عما يريده، مع تلميح إلى أنه يمكنه طلب أي شيء يرغب فيه - ملكية، مال، سلطة، مكانة، جنس؟ الإجابة، كما تروي القصة، هي أن ديوجين طلب منه: "ابتعد قليلاً عن شمسي".

سواء كان هذا اللقاء بين الملك والكلبي (من الكلمة اليونانية "kynikos" أو "شبه الكلب") قد حدث بالفعل أم لا، فهذا أمر مشكوك فيه. لكن لا شك في قوة القصة والفكرة التي تجسدها. فقد ظلت حكاية لامبالاة ديوجين الشديدة بأقوى حاكم في العالم القديم متداولة لما يقرب من 2000 عام، ربما كأسمى مثال على الرغبة في الاستكفاء الذاتي.

الاستكفاء الذاتي، أو الاكتفاء الذاتي من الكلمة اليونانية "auto" (ذاتي) و "arkeo" (يكفي) – كان يُنظر إليه منذ البداية على أنه دليل على الفضيلة الأخلاقية الشخصية. فالاعتماد على الآخرين كان يعني المساس بقدرة المرء على السعي وراء الحكمة. وإذا كان الاستكفاء الذاتي يعني الاحتماء في برميل، والنباح مثل الكلب، والمخاطرة بإغضاب ملك جبار، فليكن.

لكن، منذ الأيام الأولى للحضارة الغربية، لم تكن الفضيلة الأخلاقية للاكتفاء الذاتي هدفًا للفرد فحسب، بل كانت طموحًا للمجتمع أيضًا. وفقًا لأرسطو، وهو معاصر لديوجين، كانت الدولة المدينة المثالية في العالم القديم مكتفية ذاتيًا أيضًا، وكان سكان هذه الدولة يمتلكون كل ما يحتاجونه لمتابعة حياة فلسفية جيدة – على عكس من هم خارجها.

وكما قال أرسطو: "إن مصطلح الاكتفاء الذاتي لا نستخدمه بالإشارة إلى الفرد وحده الذي يعيش حياة منعزلة، بل أيضًا إلى والديه وأطفاله وزوجته، وأصدقائه ومواطنيه بشكل عام، لأن الإنسان بطبيعته حيوان سياسي". هذا الارتباط الأرسطي بين الاستكفاء الذاتي الفردي والجماعي – الشخصي والسياسي – استمر في العصر المسيحي. توما الأكويني، عالم ذو بنية قوية وُلد في مملكة صقلية عام 1225، لم يُبهر زملاءه في جامعة باريس لدرجة أنهم أطلقوا عليه لقب "الثور الأبكم". لكن هذا "الثور الأبكم" فعل أكثر من أي شخص آخر ربما لوضع الأسس الفلسفية للعقيدة الكاثوليكية.

بالاعتماد على أرسطو، تحدث الأكويني عن "الاستكفاء الذاتي" لله، في سياق الحجة بأن كل الوجود ينبع في النهاية من الخالق، وأن الإله لا يعتمد على أي شيء خارج ذاته. كانت هذه هي الحجة "المدرسية" الأساسية في العصور الوسطى. وقد أدت إلى الرأي القائل بأن كلما كان المرء أكثر استكفاءً ذاتيًا، كان أقرب إلى الله.

ولكن الأهم من ذلك، كان الأكويني مؤيدًا للاكتفاء الذاتي الاقتصادي، وليس الروحي فقط. لقد أشار إلى أن هناك طريقتين يمكن للمدينة أن تطعم نفسها بهما: عن طريق زراعة الطعام في حقولها المحيطة، أو من خلال التجارة. وخلص الأكويني في كتابه "في الحكم" (De Regno) عام 1265 إلى أن "الوسيلة الأولى أفضل بوضوح". "كلما كان الشيء أكثر كرامة، كان أكثر استكفاءً ذاتيًا، فكل ما يحتاج إلى مساعدة الآخر يثبت بذلك أنه ناقص". كما قدم الأكويني حجة أخلاقية للاكتفاء الذاتي عندما أشار إلى أن "الجشع يستيقظ في قلوب المواطنين من خلال السعي وراء التجارة".



وهكذا، في العالم المسيحي في العصور الوسطى، تم تقديس السعي وراء الاكتفاء الذاتي - على المستويين الشخصي والمجتمعي مما وسع جاذبيته، ووجد تجلياً واضحاً في الأديرة، التي كانت إلى حد كبير مجتمعات مكتفية ذاتياً ومستقلة عن السلطة الخارجية، باستثناء الكنيسة والله، وتنتج طعامها ونبيلها وملابسها الخاصة.

اليابان وفلسفة الاكتفاء الذاتي/ فيشته وروسو: صياغة جديدة لمفهوم الاكتفاء الذاتي في النظرية الجيوسياسية بينما ظهرت الحجج المؤيدة للاكتفاء الذاتي في أوروبا في البداية من منطلقات أخلاقية وشخصية، وعملت كبرامج روحية ونفسية بقدر ما كانت سياسية، كانت الروابط بين الاكتفاء الذاتي والوحدة الوطنية تتطور بشكل أوضح في أماكن أخرى.

فُرضت سياسة "ساكوكو" أو "البلد المغلق" على جزر اليابان في القرن السابع عشر من قبل شوغونية توكوغاوا، وهي شكل من أشكال الديكتاتورية العسكرية الإقطاعية. تم حظر المبشرين المسيحيين الغربيين واضطهاد من كانوا موجودين بالفعل في البلاد. مُنع الهجرة وتم تقليص التجارة الخارجية إلى ما يقرب من لا شيء. أعلن مرسوم صادر عن الشوغونية عام 1614: "لقد جاء المسيحيون إلى اليابان... لنشر عقيدة شريرة وتخریب العقيدة الحقيقية".

رأى اليابانيون الاكتفاء الذاتي وسيلة ضرورية للحفاظ على الدين والأخلاق التقليدية، لكن الانعزال الاقتصادي كان مرتبطاً أيضاً بمقاومة توغلات الإمبراطوريات الأجنبية، وكان وسيلة عملية لتأمين السيادة والسيطرة، وليس مجرد مبدأ مجرد.

مع تحول العالم في العصور الوسطى إلى عصر التنوير والرومانسية في أوروبا، تم إحياء فكرة الاكتفاء الذاتي من قبل جان جاك روسو. فمن خلال ما تصوره منظوراً أنثروبولوجياً، افترض روسو في "خطاب حول عدم المساواة" (1754) أن الإنسان البدائي كان "منعزلاً" بطبيعته، ولم يتحد مع الآخرين إلا للتزاوج، وكان أكثر سعادة بذلك.

### تصور روسو في ذهنه الإنسان البدائي

"يتجول في الغابات بلا صناعة، بلا كلام، بلا مأوى، بلا حرب، وبلا علاقات، لا يحتاج إلى بني جنسه، وبالمثل لا يرغب في إيدائهم، ربما حتى دون أن يتعرف على أي منهم بشكل فردي..."  
هناك أصداء واضحة لحرية ديوجين هنا في رؤية روسو "لحالة الطبيعة". والأهم من ذلك، كان لهذا آثار على معتقداته الخاصة حول كيف ينبغي للبشر أن يعيشوا. روسو، مثل أكويناس قبله، قفز من تمجيد الفضيلة الأخلاقية العامة للاكتفاء الذاتي إلى التوصية به كسياسة تجارية للدول القومية.

حذر الكورسيكيين عام 1765 قائلاً: "لا يمكن لأي شخص يعتمد على الآخرين، ويفتقر إلى موارده الخاصة، أن يكون حراً أبداً". وفي عام 1772، كانت نصيحة روسو للبولنديين: "انتبهوا قليلاً للبلدان الأجنبية، اهتموا قليلاً بالتجارة؛ ولكن ضاعفوا قدر الإمكان إنتاجكم المحلي واستهلاككم للمواد الغذائية".

ألهم روسو أحد أبرز فلاسفة المثالية الألمانية، يوهان غوتليب فيشته. في عمله "الدولة التجارية المغلقة" (1800)، سعى فيشته إلى دمج منظور روسو شبه الأنثروبولوجي مع أفكار إيمانويل كانت، الذي تصور نموذجاً "للسلام الدائم" بين الأمم.

مثل هذا تحولاً هاماً في مفهوم الاكتفاء الذاتي، يمثل أول دمج حقيقي له في النظرية الجيوسياسية. كانت الأفكار السائدة في زمن فيشته أن التجارة تميل إلى إنجاب علاقات جيدة بين الأمم. ولكن بالنسبة لفيشته، على العكس من ذلك، أدت التجارة بين الدول الأوروبية المتنافسة إلى إفساد العلاقات، وكان لا بد من فك الارتباط بالحياة الاقتصادية لكي يحظى السلام بفرصة.

زعم فيشته: "في أمة أغلقت نفسها بهذه الطريقة، يعيش أفرادها فيما بينهم فقط وقليلًا جدًا مع الأجانب... ستتطور درجة أعلى من الشرف الوطني وشخصية وطنية محددة بحددة بسرعة كبيرة".

#### المجتمعات الاكتفائية: من فورييه إلى غاندي وحركات ما بعد الاستعمار

تتجه أفكار شارل فورييه، ابن تاجر الأقمشة من بيزانسون، نحو مسار جديد وجذاب مستمدًا من أفكار فيشته وروسو حول الاكتفاء الذاتي. تُظهر الصور المعاصرة فورييه كشخص صارم المظهر، بقم رفيع وشفاه منخفضة الزوايا بشكل حاد. ومع ذلك، فإن مظهره الخارجي المتحفظ كان يخفي أحد أكثر الاشتراكيين الطوباويين غرابة في أوائل القرن التاسع عشر، مع توقعاته بأن بحار العالم ستتحول ذات يوم إلى عصير الليمون، وأن البشر سيتطورون ليصبح لديهم ذيول.

كانت مساهمة فورييه الأكثر ديمومة في تطوير مفهوم الاكتفاء الذاتي تتمثل في رؤيته لمجتمع مثالي من المجتمعات الريفية ذات الاكتفاء الذاتي، والتي أطلق عليها اسم "الفالانستير" (Phalansteries)، وهي كلمة مشتقة من "فيلق" (بمعنى تشكيل عسكري) و"دير". وقد حدد "تعليمًا وحدويًا" لجميع الأطفال في الفيلق، بغض النظر عن ثروة الأسرة، و"حدًا أدنى اجتماعيًا"، والذي كان في الواقع دخلًا سنويًا مضمونًا. إن تأثير الفالانستير على حياة المجتمعات الريفية في الستينيات واضح للعيان. كما أن الكيبوتسات في إسرائيل عكست العديد من عناصر أفكاره.

كما أن حركات "اللا نمو" (degrowth) والحركات البيئية الحديثة تحمل عناصر قوية من التفكير في الاكتفاء الذاتي، بالإضافة إلى الآثار الأخلاقية لتقليل "رغباتنا" المسببة للتبديد والتدمير، بطرق قد يكون ديوجين والمسيحيون الأوائل قد وافقوا عليها.



"إن الإجابة الأفضل من العولمة الاقتصادية هي التحول في اتجاه اقتصادات أصغر منتعشة ومحلية ومتنوعة ومكتفية ذاتيًا جزئيًا على الأقل"، هذا ما أكده جيري ماندر، عالم البيئة، في كتابه "قضية ضد الاقتصاد العالمي" (الطبعة الثانية، 2001). كان هذا جزئيًا لأنه يعتقد أن إحدى مشكلات العولمة هي أنها تشجع "الاستهلاكية الشرهة". مرة أخرى، يطفو على السطح الارتباط بين الشخصي والاجتماعي عندما يتعلق الأمر بالاكتماء الذاتي. على غرار فيشته قبلهم، غالبًا ما يجادل نشطاء اليسار المناهضون للعولمة اليوم بأن التجارة الحرة تفيد الدول الغنية بشكل غير متناسب بينما تضر الدول الأفقر. في هذا الرأي، يصبح الاكتفاء الذاتي المسار الطبيعي لكل من العدالة الاجتماعية المحلية والدولية – وهو هدف جذاب لأولئك الملتزمين بالإنصاف والاستدامة. وللأسباب ذاتها، فقد استقطب أيضًا أولئك الذين يسعون لبناء عالم جديد خالٍ من الحكم الإمبراطوري الأوروبي. في الأربعينيات من القرن الماضي، كانت رؤية المهاتما غاندي لهند مستقلة عن الحكم البريطاني تتمثل في شبكة من القرى ذات الحكم الذاتي اقتصاديًا، "حدائق عدن صغيرة"، تزرع محاصيلها وتغزل قطنها لملابسها. كتب غاندي: "يجب أن تكون كل قرية مكتفية ذاتيًا وقادرة على إدارة شؤونها حتى مدى الدفاع عن نفسها ضد العالم بأسره". لهذا السبب، كانت صورة عجلة الغزل في يوم من الأيام في قلب العلم الهندي ثلاثي الألوان. بالنسبة لغاندي، لم يكن الاكتفاء الذاتي يعني عدم وجود تجارة، بل تجارة فقط في الأشياء التي لا تستطيع القرية إنتاجها بشكل واقعي بنفسها. وشدد على أن "الاكتفاء الذاتي لا يعني الضيق. أن تكون مكتفياً ذاتياً لا يعني أن تكون منعزلاً تمامًا". ومع ذلك، في أوقات أخرى، اتخذ غاندي نبرة أكثر انعزالية بكثير، مصرًا على أن "من حقنا وواجبنا بالتأكد التخلص من كل ما هو أجنبي زائد عن الحاجة، وحتى كل ما هو أجنبي ضروري إذا كان بإمكاننا إنتاجه أو تصنيعه في بلدنا". كيف يمكن التوفيق بين هذه التصريحات؟ يجب فهم حركة غاندي للاكتفاء الذاتي – "سواديشي" بالهندية – على أنها اكتفاء ذاتي للهند بالدرجة الأولى فيما يتعلق ببريطانيا، القوة الاستعمارية المهيمنة. وقد أعلنت الحركة عام 1905 في البنغال جنبًا إلى جنب مع مقاطعة السلع البريطانية. كانت سواديشي هي الترياق الذي رآه غاندي للرأسمالية الإمبريالية المفترسة للبريطانيين. وقد ظل هذا العقلية القائمة على حاجة الهند للاكتفاء الذاتي قائمة لفترة طويلة بعد تحقيق الاستقلال. كان هناك دافع مماثل للاكتفاء الذاتي في تنزانيا ما بعد الاستقلال، حيث تأسست حركة "أوجاما" (ujamaa) للرئيس جوليوس نيريري (بمعنى "الأخوة" باللغة السواحلية) في الستينيات والسبعينيات على اعتقاد بأن الاستعمار الأوروبي والتحضر قد أفسدا الحياة الاقتصادية الأفريقية، وأن الحل كان العودة إلى الحياة الريفية ذات الاكتفاء الذاتي باستخدام "محارث الثيران" بدلًا من الجرارات. "الاستقلال يعني الاعتماد على الذات"، هذا ما نص عليه إعلان أروشا لنيريري عام 1967. بالنسبة له، كان الاكتفاء الذاتي ورؤيته المميزة للاشتراكية الأفريقية لا ينفصلان.

الاكتفاء الذاتي الاقتصادي: من لوفيفر إلى الحركات الحديثة الموجهة من الدولة

لطالما حمل الفكر التقدمي تيارًا من العزلة الاقتصادية. ومع ذلك، وكما يوضح التاريخ الحديث، فإن الدافع نحو الاكتفاء الذاتي لا يقتصر بأي حال من الأحوال على اليسار أو على الحركات البيئية.

لنتأمل على سبيل المثال روبرت لوفيفر، شخصية غريبة الأطوار لا تختلف عن فورييه. ولد لوفيفر في أيداهو عام 1911، وبدأ حياته المهنية كبائع متجول "نصاب" حسب وصفه، ثم روج لاحقًا لطائفة "العصر الجديد" في ثلاثينيات القرن الماضي. ولكن في الستينيات فقط وجد دعوته الحقيقية كمروج للأفكار الاقتصادية الليبرترارية. في "مدرسة الحرية" الخاصة به في كولورادو، طور لوفيفر نظرية "الحكم الذاتي" في محاولة لتوضيح فلسفته وتمييز معتقداته الراديكالية المناهضة للحكومة عن "اللاسلطوية".

كما ذكر في مجلة ((Rampart Journal of Individualist Thought عام 1966:

"سيشير الحكم الذاتي إلى الحكم الذاتي الكامل. وسيفترض نظامًا أو ترتيبًا اجتماعيًا يتحمل فيه كل شخص المسؤولية الكاملة عن نفسه، ويشعر في التحكم في نفسه، ويمارس السلطة على نفسه... ولا يسعى بأي شكل من الأشكال إلى فرض إرادته بالقوة على أي شخص آخر مهما كان".

كان هذا في الأساس سلالة من الليبرترارية تعود إلى المثل اليوناني القديم للاكتفاء الذاتي الفردي، بدلاً من المفهوم السياسي والاقتصادي.

لم تبرز الحركات الحديثة نحو الاكتفاء الذاتي الاقتصادي عادةً من الجهود الشعبية. لم يكن لوفيفر معارضًا للتجارة وكان من المبشرين بالأسواق الحرة. كانت مدرسته معارضًا لا يقبل المساومة لأي نوع من التدخل الحكومي أو إعادة التوزيع الاقتصادي. كان الملياردير المستقبلي تشارلز كوتش، قطب الصناعات الكيماوية والوقود الأحفوري، أحد طلاب مدرسة لوفيفر في الستينيات وقد تأثر بشدة بهذه التجربة. استمر كوتش في ضخ مبالغ ضخمة من أموال عائلته في مراكز الأبحاث الليبرترارية، مطالبًا بتخفيضات ضريبية كبيرة، وتخفيضات جذرية في الإنفاق الحكومي على الرعاية الاجتماعية، وإلغاء جذري للقيود التنظيمية.

ومع ذلك، تبدو بعض عناصر الحركة الليبرترارية الأمريكية الحديثة، ربما بشكل متناقض، قابلة للتأثر بالرؤية الجماعية، حتى لو كانت تكره النزعة الجماعية. يحاول مشروع "نيو هامبشاير فري ستيت"، الذي تأسس عام 2001، إنشاء مجتمع ليبرتراري في الولايات المتحدة، من خلال تشجيع الأفراد ذوي التفكير المماثل على الانتقال، بشكل جماعي، إلى ولاية نيو هامبشاير. "من خلال تركيز جهودنا في ولاية صغيرة واحدة ذات ثقافة قائمة مؤيدة للحرية، فإننا نقلب الموازين ضد الحكومة الكبيرة، ونختبر فوائد الحريات الشخصية والاقتصادية الموسعة"، كما ينص موقعها الإلكتروني.

يُقدر أن هناك ما بين 10,000 و 30,000 كوميونة، أو "مجتمعات متعمدة"، حول العالم، بما في ذلك المجتمعات الدينية مثل الأديرة والمعابد، التي تسعى لتحقيق الاكتفاء الذاتي الشخصي والروحي.



ولكن الحركات الحديثة الكبرى نحو الاكتفاء الذاتي الاقتصادي لم تبرز عادةً من الجهود الشعبية. بدلاً من ذلك، غالبًا ما كانت موجهة من الدولة. وقد كان هذا التحول مدفوعًا إلى حد كبير بالحرب الحديثة - أو، بشكل أكثر دقة، بالتهديد بها.

**النتائج الكارثية للاكتفاء الذاتي: من الإبادة الجماعية إلى كوريا الشمالية المعزولة**  
كانت اكتفاء أدولف هتلر الذاتي استجابة لتجربة ألمانيا في الحرب العالمية الأولى، عندما تعرضت البلاد للتجويع بسبب حصار البحرية البريطانية. كتب هتلر في عشرينيات القرن الماضي مستبعدًا فكرة أن ألمانيا يمكنها إطعام سكانها من خلال زيادة الإنتاجية الزراعية، ورثى قائلًا: "الشعب الألماني اليوم أقل قدرة من سنوات السلم على إطعام نفسه من أرضه وإقليمه".

بالنسبة للرقيب السابق، كان طريق الحفاظ على الذات الوطنية يمر عبر برنامج جذري لبناء الاكتفاء الذاتي الوطني. وكان يعتقد أن خلاص ألمانيا يكمن في غزو واستغلال خيرات الأراضي الريفية في الشرق، وبالتالي الحصول على المجال الحيوي (Lebensraum) سيئ السمعة.

في خطاب ألقاه عام 1936، بعد أن تولى منصب المستشار الألماني وسحق كل المعارضة الداخلية، أوضح هتلر نواياه التوسعية الإقليمية:

"لو كانت لدي جبال الأورال بمخزونها الهائل من كنوز المواد الخام، وسيبيريا بغاباتها الشاسعة، وأوكرانيا بحقول القمح الهائلة، لسبحت ألمانيا والقيادة الاشتراكية الوطنية في الوفرة!"

ومن المفارقات أن خصم هتلر، جوزيف ستالين، على الرغم من سيطرته المباشرة على تلك الأراضي الخصبة، شعر أيضًا بالخوف من انعدام الأمن القومي وقرر اتباع سياسة الاكتفاء الذاتي للاتحاد السوفيتي في ثلاثينيات القرن الماضي، متعمدًا قطع الصادرات والسعي إلى ترسيخ الاستقلال الاقتصادي السوفيتي عن "العالم الرأسمالي".

استُخدمت مبررات مماثلة للاعتماد على الذات، قائمة على الأمن القومي، في الصين الشيوعية خلال القفزة العظيمة لماو تسي تونغ في خمسينيات القرن الماضي، عندما سعى إلى إنشاء صناعة فولاذ وطنية محلية من الصفر عن طريق إجبار المزارعين على صهر أوانيهم ومقاليهم في أفران منزلية. ولكن كان هناك بعد أخلاقي شخصي حاضرًا أيضًا. فقد تم تقديم مزارعي قرية دازاي المغمورة في مقاطعة شانشي من قبل الدعاية الماوية كأمثلة على العمل الجاد والاعتماد على الذات ليحتذى بها الأمة بأكملها.

ومع ذلك، يقع أكثر دعاة الاكتفاء الذاتي حداثة إلى الشرق من الصين. ففي خمسينيات القرن الماضي، جعل كيم إيل سونغ، الزعيم الشيوعي الكوري الشمالي والمقاتل الشيوعي المناهض لليابان، الاكتفاء الذاتي الوطني ليس مجرد هدف مهم، بل هو النجم الهادي لنظامه الجديد. وقد أطلق عليه اسم جوتشي (juche).

وأوضح كيم أن "تأسيس الجوتشي يعني ... رفض الاعتماد على الآخرين، واستخدام عقل المرء، والإيمان بقوته، وإظهار الروح الثورية للاعتماد على الذات". وبالتدقيق، يمكن رؤية علاقة بين ذلك والطموح إلى الاستقلال الشخصي المتجسد في الاكتفاء الذاتي في اليونان القديمة.

في الواقع، كان شخصيات مثل كيم وهتلر وستالين وماو مدفوعين بشكل أساسي بشبح الحرب، وليس بمثل الفضيلة الوطنية، عندما نفذوا برامجهم الانعزالية الوطنية. كانت نتائج رؤاهم للاكتفاء الذاتي كارثية، مما أسفر عن إبادة جماعية ومعاناة على نطاق لا يمكن تصوره. اليوم، تظل كوريا الشمالية مملكة منعزلة، تشكلها عبادة عائلية شمولية، وهي فعليًا دولة سجن لشعبها، وتحذير من التكلفة الاقتصادية والاجتماعية للانعزالية.

### جاذبية الاكتفاء الذاتي: من واشنطن إلى ترامب وتحالفات غريبة

على الرغم من الكوارث الاقتصادية التي غالبًا ما يجلبها السعي وراء الاكتفاء الذاتي، فمن المهم أن ندرك أن جاذبيته قد استهوت أيضًا بعض قصص النجاح الاقتصادي الوطني البارزة.

ففي يناير 1790، وقف جورج واشنطن، أول رئيس للولايات المتحدة، ليلقي رسالته الأولى أمام الكونجرس الأمريكي معلناً: "لا ينبغي أن يكون الشعب الحر مسلحاً فحسب، بل منضبطاً أيضاً، وتتطلب سلامته ومصالحه أن يعززوا الصناعات التي تجعلهم مستقلين عن الآخرين فيما يتعلق بالإمدادات الأساسية، لا سيما العسكرية". كان السياق حينها هو التهديد من بريطانيا العظمى، التي طردت في حرب الاستقلال ولكنها ظلت خطراً عسكرياً عميقاً على الجمهورية الناشئة. وكانت بريطانيا قوة عظمى صناعية تعتمد على التجارة الحرة. اعتقد واشنطن ووزير خزانته ألكسندر هاميلتون أنهما يجب أن يبنيا القاعدة الصناعية للولايات لتمكين الجمهورية من الدفاع عن نفسها. وهذا يعني فرض جدار عالٍ من ضرائب الاستيراد التعريفات الجمركية لمنع المصانع "الوليدة" في الولايات المتحدة من الاختناق بسبب المنتجات المستوردة الأرخص من بريطانيا الأكثر إنتاجية. وكان أحد أوائل الإجراءات التي اتخذها الكونجرس الأول هو فرض تعريف جمركية.

لقد ألهم "النظام الأمريكي"، كما أصبح معروفاً، مهاجرًا ألمانيًا إلى بنسلفانيا يُدعى فريدريش ليست لكتابة كتاب مؤثر عام 1841 يوصي بما أسماه "نظامًا وطنيًا للاقتصاد السياسي"، والذي رفض الحجج الأساسية لشخصيات مثل آدم سميث وديفيد ريكاردو بشأن عقلانية الدول في السعي وراء التجارة الحرة. بدلاً من ذلك، قال ليست إن البلدان ذات الإمكانيات الصناعية الكبيرة غير المحققة والتي كانت تحاول اللحاق بركب الدول الرائدة في الإنتاجية في هذه الحالة، بريطانيا يجب أن تعمل على حماية مصانعها غير الناضجة من المنافسة مع الرائدة بفرض قيود قوية على الاستيراد حتى تصبح قوية بما يكفي للمنافسة. لا تزال هذه حجة مقنعة اليوم لزعماء الدول النامية والمتقدمة على حد سواء، وكثيرًا ما تُستخدم لتبرير الحمائية التجارية كحجر زاوية في استراتيجيات التصنيع أو إعادة التصنيع.



من اللافت مقارنة خطاب واشنطن الأول أمام الكونجرس بما قاله ترامب للمؤسسة نفسها في عام 2025. "إذا لم يكن لدينا ... الفولاذ والكثير من الأشياء الأخرى، فلن يكون لدينا جيش، وبصراحة، لن تكون لدينا دولة لوقت طويل جدًا"، أكد الرئيس السابع والأربعون، موضحًا سبب إعادة فرضه مؤخرًا للتعريفات الجمركية على واردات الفولاذ. "اعتدنا على صنع الكثير من السفن. لم نعد نصنعها كثيرًا الآن، لكننا سنصنعها بسرعة كبيرة، قريبًا جدًا." من خلال ربط السياسة التجارية صراحة بالاعتماد على الذات الوطنية والقدرات الدفاعية، كان ترامب يعيد إحياء أفكارًا كانت مؤثرة جدًا عند ولادة الجمهورية الأمريكية.

ويستفيد آخرون اليوم من تيارات تاريخية مماثلة. مينسيوس مولدباج، الاسم المستعار لمدونة عالم الكمبيوتر الأمريكي كيرتس يارفين، هو منظر استبدادي تكنولوجي بارز يمتد تأثيره إلى بعض السياسيين والممولين الأثرياء المتحالفين مع ترامب. يدعو يارفين إلى تفكيك الديمقراطية الأمريكية لصالح ملكية أو شخصية "رئيس تنفيذي" وطنية. مع انهيار السفر الدولي عند بداية جائحة كوفيد-19 في عام 2020، رأى يارفين لحظته، ليس فقط في التسامح مع الانعزالية "بل في الترويج لها". وكتب على الإنترنت: "هذه الحالة من العزلة المطلقة ليست مثالية بشكل عام. ولكن إذا احتجنا إلى علاقة تجمع بوضوح بين الاستقلال غير المشروط والسلام غير المشروط، فالعزلة المطلقة متاحة دائمًا". "أي بلد، في أي وقت، يمكن أو يجب أن يكون حرًا وقادرًا على عزل نفسه تمامًا عن العالم."

هذا، كما قال، في صدى لفيخته، من شأنه أن يعزز آفاق السلام بين الدول. واستند يارفين إلى بعض الأنظمة الآسيوية الاكتفائية التاريخية لتبرير موقفه: "لو أن القوى الغربية احترمت رغبات أسرة تشينغ وشوغونية توكوغاوا ولم تلتزم بهذه السياسات فحسب، بل تعاونت في فرض العزلة على مواطنيها، لظلت كنوز هذه الحضارات القديمة - البشرية والمادية - موجودة. أي عالمي يمكنه الوقوف والقول إن تدميرنا لهذه المجتمعات كان أمرًا جيدًا؟" توصية يارفين السياسية لأمريكا في القرن الحادي والعشرين؟ "الساكوكو الجديد" (Neo-sakoku). إن الدافع للاكتفاء الذاتي يصنع بعض التحالفات الغربية.

**التجارة والترابط: جزء لا يتجزأ من طبيعة الإنسان وتاريخه / الجذر العميق لدافع الاكتفاء الذاتي: أخلاق شخصية وأساس فطري**

يزعم بعض علماء الأنثروبولوجيا أن التبادل الاقتصادي بين مجموعات البشر ربما يمتد إلى مئات الآلاف من السنين. ففي حوض أولورجيسالي بكينيا، عُثر على فؤوس يدوية الصنع من حجر السبع، وهو زجاج بركاني طبيعي. لا ينتمي السبع إلى المنطقة، مما يشير إلى أن هؤلاء البشر من العصر الحجري الذين عاشوا منذ حوالي 320 ألف عام كانوا يتاجرون مع مجموعات أخرى. يبدو أن جزءًا مما يميز جنسنا - مما يجعلنا متميزين عن القردة الأخرى - هو الطبيعة التعاونية والاجتماعية للإنسان العاقل، وتحديدًا قدرتنا على "التعلم الثقافي". لقد أخطأ روسو في اعتقاده بأن الإنسان البدائي كان فردًا مكتفيًا ذاتيًا ومنعزلًا.

والدليل لا لبس فيه على أن العولمة – أي زيادة الروابط التجارية، ونقل المعرفة والتكنولوجيا، والمزيد من الاستثمار عبر الحدود، وهجرة الناس – قد حققت فوائد مادية مذهلة للبشرية ومستويات معيشة أعلى على مدى القرون الأخيرة، وخاصة في حقبة ما بعد الحرب العالمية الثانية. لقد تعرضت بعض المجتمعات، بلا شك، للاضطراب والمعاناة بسبب تأثير العولمة، ولكن لا يوجد سبب للاعتقاد، على الرغم مما يجادل به بعض السياسيين، بأن تحول الدول بشكل جماعي نحو الانغلاق سيزيل ذلك الضرر. ومن المرجح أن يتسبب مثل هذا التراجع في ضرر جسيم لسبل عيش مليارات الآخرين في جميع أنحاء الكوكب. التجارة والترابط، سواء أدركنا ذلك أم لا وأحببناه أم كرهناه، هو جزء مما نحن عليه – وقد كان كذلك دائمًا.

ومع ذلك، فمن العبث إنكار أن دافع الاكتفاء الذاتي – أي اللا اجتماعية الاقتصادية – يصل أيضًا إلى أعماق نفوسنا وتاريخنا. إن أكثر ما يلفت الانتباه في الاكتفاء الذاتي هو قدرته على التكيف كبرنامج وأيديولوجية. يمكنه أن يجذب بشكل مثير للإعجاب عبر خطوط سياسية واجتماعية وفكرية تبدو متناقضة. لقد تبنته، في أوقات مختلفة، حركات سياسية من اليسار واليمين، ومن قبل المؤمنين والملحدين، ومن قبل القوميين والعالميين، ومن قبل الفاشيين والشيوعيين، ومن قبل الدول الغنية والفقيرة، ومن قبل القوى الإمبريالية والمستعمرات، ومن قبل دعاة حماية البيئة والصناعيين. يمكن تبريره بهدف السلام أو بمتطلبات الحرب. يمكن لأي وحدة – من الفرد، إلى الأسرة، إلى القرية، إلى المدينة، إلى الأمة – أن تطمح على ما يبدو إلى الاكتفاء الذاتي. يمكن أن ينبع من حنين إلى الماضي – رغبة في إعادة عقارب الساعة إلى الوراء أو الحفاظ على الوضع الراهن – أو من اعتقاد بأنه برنامج تقدمي وضروري لبناء المستقبل. مثل نمط الطقس التاريخي لظاهرة النينو، يستمر الدافع للاكتفاء الذاتي في العودة، بشكل غير متوقع ولكن أيضًا، على ما يبدو، حتميًا.

إذن، ما الذي يجعل دافع الاكتفاء الذاتي ثابتًا جدًا؟ إن تلك القدرة المتغيرة على التشكيل والتثبيت على عدد لا يحصى على ما يبدو من الأيديولوجيات هي بالتأكيد مفتاح ذلك. ولكن ربما يكون أيضًا ذلك الرابط السري في الاكتفاء الذاتي – الواضح منذ أيام اليونان القديمة – بين الأخلاق الشخصية وسؤال كيف يجب أن نتعامل مع بعضنا البعض داخل المجتمعات وبين المجتمعات. لكي تكون الحركات السياسية ناجحة، يجب أن تجذب شيئًا أساسيًا في طبيعة الجميع. وغالبًا ما يكون إحساسنا الفطري بفضيلة الاعتماد على الذات هو حجر الأساس الذي تبنى عليه.